الفصل الرابع

مقدمات مسلم

١

ندرة المقدمة الطللية

معروف أن ما بقى من ديوان مسلم بن الوليد مختارات ومنتخبات[١]. ولو وصل إلينا ديوانه كاملا لاستطعنا استخلاص صورة دقيقة منه لجهوده التى كان يبذلها فى إخراج مقدمات قصائده على تنوع أشكالها قديمها وجديدها . غير أن ضياع قسم من مطولاته مدائح وغير مدائح يجعل أحكامنا على افتتاحاته بعامة ظنية ترجيحية لأنها لم تنهض على دراسة شاملة لكل قصائده .. ومن أجل ذلك فإننا لا نستطيع القطع بأنه كان يجنح إلى التمسك بالألوان الموروثة من المقدمات ، وأنه كان يحافظ على تقاليدها ومقوماتها ، أو أنه كان يحذف منها ويحور فيها ، كما أننا لا نملك دليلا نجزم معه بأنه مال إلى الألوان المستحدثة من الفواتح وأكثر منها إكثاره من سابقاتها ، وإن كنا نراه يستهل بعض مدائحه بوصف الخمر ويؤصل وصفها فى تضاعيف مقدماته التقليدية المختلفة .

وقد أنبأنا القدماء بأنه كان « مداحًا محسنًا مجيداً مفلقًا »[٢] ، وأنه كان بما ثقفه من الشعر العربى جاهليه وإسلاميه وعباسيه وبما استقر فى نفسه من معانيه وصوره وتقاليده — أستاذاً لبعض معاصريه من الشعراء يقصدونه ويعرضون عليه قصائدهم طالبين إليه تقويمها والحكم عليها وإصلاح ما اعتورها من اعوجاج وانحراف[٣] . وأيضًا فإن فى أخباره ما يدل على أنه عنى عناية شديدة بصياغة مدائحه التى تخصص فى تدبيجها مشيداً بالخلفاء والوزراء والقادة والولاة[٤] ، مختاراً لها الألفاظ الجزلة المصقولة ، والأوزان الضخمة الطويلة ، وباثًّا فى ثناياها الصور الرائعة التى تلتحم فيها الخيوط القديمة بالخيوط الجديدة التحامًا رائعًا ، ومشيعًا بها ألوان البديع[٥] ، حتى

---

(١) العصر العباسى الأول ص : ٢٦٠ .
(٢) طبقات ابن المعتز ص : ٢٣٥ .
(٣) الأغانى (طبع بيروت) ١٨ : ٣٣٢ .
(٤) الأغانى (طبعة دار الكتب) ٤ : ٢٧ .
(٥) العصر العباسى الأول ص : ٢٦٢ .

ليصفه ابن الأثير بأنه «فارس الشعر وصاحب الأسلوب الغريب العجيب»[١] .

هذه المعرفة الوثيقة بنماذج الشعر العربى القديمة والحديثة ، وما كان يأخذ به مسلم نفسه من الجهد والتدقيق فى صنع قصائده ، وارتباطه بالمديح قد ينبئ كل ذلك بأنه حرص على افتتاح مدائحه بالأشكال الموروثة من المقدمات ، وأنه تمسك بعناصرها وتفاصيلها المرسومة . وخاصة المقدمة الطللية التى حافظ الشعراء المداحون قبله على استهلال مدائحهم بها وعلى إثبات معظم تفاصيلها . غير أن الدارس لما بقى من مدائحه يرى أنه لم يستكثر من افتتاحها برسم مشاهد الأطلال ، ولا ألم بكل أصولها ودقائقها ، وإنما حذف كثيراً منها وأثبت محل الأجزاء التى تليها والتى كان الشعراء يصفون فيها مناظر الصحراء ورحلاتهم ونوقهم وإبلهم — وصف الخمر ، حتى ليصبح هذا الوصف من أبرز الظواهر التى أشاعها فى مقدماتها التقليدية على تنوعها ، وحتى ليتميز به عن سائر الشعراء الذين سبقوه أو عاصروه أو خلفوه .

ويظهر أنه أقل من استهلال مدائحه بالمقدمة الطللية ، وأنه عمد إلى التحلل من هذا التقليد عمداً ، لسبب بسيط وهو أنه كانت له صحبة مع أبى نواس ومع غيره من المجان من أمثال الحسين بن الضحاك الخليع ، ودعبل الخزاعى ، وأبى الشيص[٢] ، أولئك الذين كانوا يجتمعون فى مجالسهم الخاصة على الشراب ، والذين كان أبو نواس يذيع بينهم فى هذه الاجتماعات المتكررة دعوته إلى نبذ الوقوف على الأطلال واستبدال وصف الخمر بها .

ومعنى ذلك أن مسلماً كان ممن أشربوا روح العصر وطبيعة الحياة فيه ، وأنه استشعر كما استشعر أبو نواس وسواه من المجان والخلعاء أن تصوير مشاهد الأطلال والصحراء لم يعد صالحاً لأن تفتتح به المدائح ولا لأن يسع عواطفه وتجاربه . ومن هنا أخذ يصوغ مدائحه متخففاً من استهلالها بوصف الأطلال ومهملا لغير قليل من تقاليد هذا الوصف وعناصره المتأصلة . آية ذلك أنه ألم بوصف الأطلال فى صدر مدحتين مما بقى من مدائحه[٣] . وقد لا يكون فى ذلك البرهان الواضح الصحيح على ما ذهبنا إليه

---

(١) المثل السائر ١ : ٢٥٠ .

(٢) طبقات ابن المعتز ص : ٧٢ ، ٢٠٧ .

(٣) ديوانه ص : ١٣٠ ، ٢٢٠ .

بحيث يكون ظنًّا منا لا دليل عليه ولا مسوغ له . غير أن هذا الظن يرتفع إلى مرتبة اليقين ، فإن مسلمًا نفسه يعطينا الدليل عليه ؛ وهو هذه الأبيات التى عثرنا عليها فى مطلع قصيدته التى يمدح بها الأمين . والتى يصرح فيها بثورته على هذا التقليد قائلا [١] :

شُغْلى عنِ الدارِ أَبْكِيها وأَرْثيها ... إذا خَلَتْ من حَبيب لى مَغانيها [٢]
ع الرَّوامِسَ تَسْفى كلَّما دَرَجَتْ ... تُرابَها وَدَعِ الأَمطارَ تُبْلِيها
إنْ كان فيها الذى أَهوى أَقَمْتُ بها ... وإنْ عَدَاها فما لى لا أُعَدِّيها
أَحَقُّ منزلةٍ بالتَّركِ منزلةٌ ... تَعَطَّلَتْ من هَوَى نفسى نَواديها [٣]

وواضح أنه يشرك أبا نواس فى الثورة ، غير أنه لا يشغب على الأعراب ، ولا يثير ضجيجًا ولا عجيجًا ، بل يتمثل المسألة تمثلا صحيحًا ، ويعبر عنها تعبيراً واضحًا فى بساطة وهدوء ودون جنوح إلى الثورة العارمة . فهو يشغل بديار صاحباته ما دامت مأهولة بهن ، وما دام يزورهن ويلهو بها معهن ، وما دامت مسرحًا لشبابه وشبابهن أما إذا ارتحلن عنها وهجرنها فإنه لا يتردد عليها ولا يشغل بها ، بل ينساها ويضن عليها بالوصف والبكاء فيها ولها ، ويترك الرياح والأمطار تمحوها وتخفى عليها ، لأنها أدت دورها فى قصة حبه ولهوه .

بل إنه انتقل بعد ذلك مباشرة إلى وصف الخمر ، وعكوفه عليها وإعراضه عن لوم اللائمين له فى ولعه بها . ووصف ساقيها ضخم الأرداف ، دقيق الخصر . مَيَّاس القد ساحر الدل ، مترف الثياب ، الذى استولى على فؤاده على نحو ما سلبت الخمر عقله . وهو وصف شغل عشرة أبيات منها .

أَمكنتُ عاذلتى فى الخمرِ من أُذُنٍ ... صَمَّاءَ يُعْيى صَداها من يُناديها
ولمتُ حين أَدارَ الكأْسَ لى قَمَرٌ ... الآنَ حين تَعاطَى القوسَ باريها
يا أَمْلَحَ الناسِ كَفًّا حين يَمْزِجُها ... وحين يأْخُذُها صِرْفًا ويُعْطيها

(١) ديوانه ص : ٢١٦ .
(٢) أبكيها وأرثيها : أى لا أبكيها ولا أرثيها .
(٣) النوادى : المجالس .

وكأنما شرح موقفه ووضح رأيه فى أول القصيدة لكى يأخذ فى وصف الخمر التى فتن بها والتى أكثر فى ثنايا مقدماته التقليدية من حديثه عنها حتى لا يكون عليه حرج فى وصفها . بل كأنما أراد أن يبين السبب فى وصفه لها حتى لا يزوّر الأمين عنه ولا يغضب عليه . فقد تغيرت بيئته وحياته ، وارتقت ملاهيه وملذاته مما يسوغ له أن يصف الخمر فى صدر مدحته بل مدائحه كما وصف الجاهليون الأطلال فى أوائل قصائدهم ، ومما يسوغ له أيضًا أن يهمل وصف الصحراء والناقة والرحلة ويشرع فى المدح بعد وصف الخمر كما صنع فى هذه المقدمة .

ولعل استشعار مسلم لحياة عصره ، وانضمامه إلى موكب المنادين بالإعراض عن وصف الأطلال هما السببان اللذان أفضيا إلى قلة المقدمة الطللية فيما نقل إلينا من قصائده ، وأيضًا إلى تخففه حين ألم بها من بعض جزئياتها الصحراوية وتقاليدها البدوية ، كما يتضح فى فاتحة مدحته الرائية لمنصور بن يزيد ، يقول[١] :

هاجتْ وساوِسَه بِرُومَةَ دُورُ ... دُثُرٌ عَفَوْنَ كأنَّهن سطورُ[٢]

أهْدَى لها الإقفارَ حتى أوْحَشَتْ ... من بعدِ أُنْسٍ زائرٌ وغَيُورُ

جَرَتِ الرياحُ بها وغَيَّرَ رسمَها ... هَزِمُ الكُلا ذَاتى الرَّبابِ مَطيرُ[٣]

أبْكى نعمَ أبكاه رَعْىُ اللِّوَى ... تَسْفى عليه مَعَ العَجاج المُورُ[٤]

خلتِ الديارُ وكان يُعْهَدُ أهْلُها ... رأجَدَّ بالأحبابِ منها مَسِيرُ

تاللهِ ما إنْ كادَ يَقْتُلُنى الهَوَى ... لولا رسومٌ بالعَقِيقِ ودُورُ

وحقًّا هو يصف بقايا منازل خليلاته ويحدد مواقعها . وما آلت إليه من العفاء والإمحاء بفعل الأمطار الشديدة والرياح العاصفة ، وكيف أن منظرها الموحش هيج

---

(١) ديوانه ص : ٢٢٠ .

(٢) رومة : أرض بالمدينة . دثر : بوال .

(٣) الكلا : جمع كلية وهى رقع بالمزادة . الرباب : سحاب صغير .

(٤) المور : الغبار .

ذكريات حبه الماضية حتى كادت تهلكه وتودى به . غير أنه — على احتفاظه بتحديد موضعها ، وبتشبيهه للديار فى دثورها بالسطور البالية ، وبذكره لما غيَّرها من رياح وأمطار — قد أهمل إهمالا تامًّا ذكر معالمها الباقية التى طالما أثبتها الشعراء الجاهليون والأمويون ، كما أهمل ما نزل بها من الحيوان بعد مفارقة أهلها لها ، تلك العناصر التى أخذ الشعراء العباسيون مثل بشار وأبى نواس يحذفونها أو يحذفون بعضها ، والتى أسقطها هو كما أسقطوها .

ولم يشرع فى المدح مباشرة بل وصف رحلته فى البرارى والظلمات ، وناقته التى ركبها وكيف أن مشقة السفر أهزلتها وأضمرتها فإذا هى كالسهم :

كم قد تَخَمطَّتِ القَلُوصُ بى الدُّجا ... ورداؤها وردانى الدَّيجُور[1]
فى ضُمَّرٍ مِثْلِ القِداحِ سَوامِهٍ ... أَزْرَى بها التَّفْليسُ والتَّهْجِيرُ[2]
تُطْوَى لَهُنَّ بصَبْرِهِنَّ عَلَى السُّرَى ... وبسيرهن سَباسِبٌ ووُعُور

ومعنى ذلك أنه لم يُلْغِ فى كل افتتاحاته التقليدية كل الأجزاء البدوية والمشاهد الصحراوية ، وإن كانت الصفة الغالبة عليه أن يستعيض بوصف الخمر عن وصف الصحراء ومناظرها . بل أنت تجد آثاراً من تخففه من التوسع فى تصوير مناظر الصحراء وحيوانها ، فقد وصف رحلته وناقته وما قطع من المفاوز فى ثلاثة أبيات فقط ، مع أن وصفها كان يشغل أكثر من ذلك ليس عند الجاهليين بل عند بشار وأبى نواس ، كما أنه لم يشبه ناقته فى سرعتها بحمار الوحش على نحو ما مر بنا عند بشار وأبى نواس .

وتشاكل مقدمته الطللية الثانية المقدمة السابقة فى شىء ، وتغايرها فى شىء : تتفق معها فى أنه لم معها فى أنه لم يرسم صورة مفصلة للأطلال ، وتختلف عنها فى أنه لم يخلص منها إلى وصف رحلته فى الصحراء ، بل إلى وصف مجلس لهوه وخمره ، يقول[3] :

---

(١) تخطمت : قطعت بقوة .
(٢) التفليس : السير فى الصباح .
(٣) ديوانه ص : ١٣٠ .

آثارُ أطلال برُومةَ دُرَّسٍ هجن الصبابةَ واستثرنَ مُعَرَّسى[١]
أوْحَتْ إلى دِرَرِ الدموع فَأَسْبَلَتْ واسْتَفْهَمَتْهَا غيرَ أنْ لم تنبِسِ[٢]
زَجِّ الهوى أوْ دَعْ دُموعَكَ تَبْكِهِ وَاجْنَحْ إلى خُطَطِ المَتَالِفِ وَاحْبِسِ[٣]
وَكَلَ الزمانُ إلى البِلَى أَطْلالَها فَخَلَتْ مَعَالِمُها كَأَنْ لم تُؤْنَسِ

فهو يصور معالم الديار الدائرة التى أبلاها تعاقب الأزمان حتى كأن لم تكن تطفح بالحياة وتعج بالحركة ، والتى حركت فى نفسه ذكريات الحب الخالية ، وما زالت تلح عليه وتستبد به حتى أرَّقته وأجرت دموعه . ويخير نفسه بين أمرين : فإما أن يظل مفكراً فيها وعاكفاً عليها فيموت شهيد الذكريات والهوى ، وإما أن يتناساها فيسلم من شرها .

وبعبارة أخرى هو يشير إشارة موجزة إلى موضع الديار بدون أن يفصل فيه أو يذكر ما كان يحيط به أو يحدد موقعها بدقة ، كما يلم ببكائه فيها واستنطاقه لها واستعجامها عليه ، بدون أن يعرض للرفيقين التقليديين ، ويوجز أيضاً فى ذكره لما بَدَّلها وعفى عليها بل يركزه فى الأيام التى أفنتها دون أن يشير إلى الأمطار والرياح وصفاتها وأنواعها .

ومضى فى تجديده فإذا هو يتحدث عن الخمر مباشرة حديثاً عرض فيه لصاحبه الأريحى الذى كان ينادمه ويلتقى معه على الشراب بين الخمائل ، وكيف أنهما ظلا مكبين على الخمر يعبان من كؤوسها حتى اصفر قرن الشمس ومالت نحو المغيب :

ولربَّ صاحب لذَّةٍ نادمتُهُ فى روضةٍ أُنُفٍ كريم المَعْطِسِ[٤]
صفراء من حَلَبِ الكرُوم كَسَوْتُها بيضاء من صَوْبِ الغُيوم البُجَّرِ[٥]
حَتَّى إذا نَضَبَ الهارُ وأُدْرِجَت فى الليل شَمْسُ نهارِهِ المُتَوَرِّسِ[٦]

---

(١) استثرن معرسى : منعنى من النوم .
(٢) النبس : الكلام . الدرر : جمع درة وهى دفعة من الدمع .
(٣) زج الهوى : ادفعه عن نفسك . المتالف : المهالك .
(٤) الروضة الأنف : التى لم ترع . كريم المعطس : شريف .
(٥) كسوتها : مزجتها . البجس : المنسكبات .
(٦) المتورس : المصفر .

ووصف مسلم للأطلال فى هذه الأبيات وسابقاتها لا يعنى أنه عاش بالبادية وعرف حياتها ، ولا أنه كانت له رفقة مع إحدى فتياتها فى منزل من منازلها جمعت فيه الحياة الدائرة بينهما ثم فرقت أحدهما عن الآخر بعد انتهاء النجعة ، بحيث يختلف هو على ذلك المنزل بعد رحيله ورحيل صاحبته عنه ، وبحيث يراه مقفراً متغيراً فيألم له ، ويسترجع ذكرياته فيه ، وإنما هو وصف تقليدى لا أكثر ولا أقل . وإلا فأين هو من رومة ووادى العقيق ؟ بل أين صاحبته التى لم يذكرها فى كلتا المقدمتين ولا صرح باسمها . إن وصف الأطلال ليس أكثر من قالب فنى تقليدى استغله مسلم وأمثاله من الشعراء العباسيين استغلالا جيداً ، فقد طرحوا منه مظاهر البداوية التى مثّلتْها فى مقدمات الجاهليين آثار الديار ، وأضفوا عليه من رقتهم ورهافةحسهم ما جعله ملائمًا لعصرهم وأذواقهم ، فإذا هو يتسع عواطفهم وتجاربهم ، وإذا هم لا يخرجون على التقاليد الفنية المرعية التى ارتضاها جمهور الممدوحين ومن كان يحيط بهم من العلماء الذين كانوا يدعون إلى التمسك بتلك التقاليد .

وبذلك استطاع مسلم وأضرابه من الشعراء أن يلائموا ملاءمة دقيقة بين الذوق العام وما ارتضاه من شكل وصورة للقصيدة ، وبين ذوقهم الخاص وما أشْربه من حضارة ، فإذا هم يستهلون بعض قصائدهم الرسمية بوصف الأطلال متخففين فى هذا الوصف من كثير من العناصر البدوية وما تبعها من وصف الصحراء ، ومثبتين مكانها عناصر حضرية منها وصف الرحلة فى السفن كما مر بنا عند بشار وأبى الشيص والحسين بن الضحاك ، وكما سنرى عند مسلم بعد قليل ، ومنها وصف الخمر الذى أكثر مسلم منه واشتهر به .

ومعلوم أن مسلمًا كان يتأنى فى صنع قصائده وينفق وقتًا طويلا فى تدقيقها مختاراً لأكثرها الألفاظ الناصعة المصقولة ، والقوالب الجزلة الرصينة . والأوزان الضخمة الطويلة ، كما كان يشيع فيها ضروبًا من البديع ، حتى تميز بذلك عن بشار وأبى نواس وغيرهما من الشعراء الذين كانوا يعاصرونه ، بل حتى غالى بعض القدماء حين ذهبوا إلى أنه أول من قال الشعر المعروف بالبديع[1] .

فهل نرى آثاراً واسعة من ألوان تصنيعه فى مقدماته بحيث يمكن أن نستخلص منها

---

(١) الأغانى (طبعة بيروت) ١٨ : ٣١٥ ؛ وانظر معاهد التنصيص ٢ : ١٠ .

أنه أعطاها صوراً غير صورها عند شعراء عصره خضوعًا لهذا المذهب الذى جعله قصده ووكده ؟ .

الحق أن الدارس لافتتاحاته على اختلافها يلاحظ أنها مبنية بناء قويًّا ناصعًا ؛ وأنه انحرف بها بعض الانحراف نحو البديع بحيث نأخذ على يديه أشكالا جديدة تقوم على التصنيع فى المعانى والمبانى . وطبيعى أن تصنيعه يختلف من مقدمة إلى أخرى فنحن نراه حينًا ينثره نثراً ، وحينًا آخر يكثفه تكثيفًا ، مما يجعل مقدماته فى هذه الحال مخالفة أشد المخالفة لمقدمات غيره ، ومفارقة لها أعظم المفارقة .

وردد البصر فى المقدمات الثلاث التى أوردناها له فإنك واجد أنه يميل فيها بعض الميل نحو البديع ، بل ينثر فيها بعض ألوانه دون أن يكثر منها أو يكثفها مع أننا سنراه فى مقدمات أخرى يتوسع فى التصنيع ويلح عليه . فهو فى المقدمة الأولى يطابق بين « كان فيها » و « عَدَاها » ، وبين « أقمتُ بها » و « أعَدّيها » ؛ بل بين الشطر الأول من البيت الثالث كاملا ، وبين شطره الثانى برمته :

إن كانَ فيها الذى أَهوَى أَقمتُ بها وإنْ عَداها فما لى لا أُعَدِّيها

وهذا هو ما يصادفنا من ألوان البديع فى المقدمة الأولى أما المقدمة الثانية فعمد فيها أيضًا إلى عنصر المطابقة ، فقد طابق فيها بين « الإقفار » و « الأنس » وبين « خلت الديار » و « يُعْهَدُ أهلها » . وكذلك الشأن بالقياس إلى المقدمة الثالثة ، فهو يطابق فيها بين « زَجِّ » و « اجْنَحْ » .

وقد لا يكون فى هذه المطابقات ما يجعل مقدماته مغايرة أشد المغايرة لمقدمات غيره ، فنحن نعثر على بعض الطباق والجناس والتصوير عند سواه كما نعثر عليها عنده على أن السبب فى اختفاء المفارقة الواضحة بينه وبين غيره هنا هو أنه لم يجنح كل الجنوح نحو البديع ، وإنما اعتمد على لون واحد منه هو الطباق دون أن يسرف فيه إسرافًا أو يتكلف تكلفًا . ومع ذلك فإننا سنظفر له بافتتاحات أخرى مال فيها كل الميل إلى التصنيع ، وكثّف بها ألوان البديع مما يظهر الفوارق بينه وبين سواه .

٢
صنعته فى سائر مقدماته التقليدية

على هذا النحو مضى مسلم يقل من استهلال مدائحه بالمقدمات الأساسية الموروثة ، مضائلا من مقوماتها ، ومضيفًا إليها عناصر جديدة أهمها وصف الخمر ، ومشيعًا فيها ألوان البديع والتصوير . فقد افتتح مدحتين من مدائحه بوصف الظعن ، غير أنه لم يذكر فيهما الهوادج ولا أعوادها ولا الثياب التى تكللها ولا حادى قافلتها ولا طريقها ولا غايتها ، وإنما توسع فى تصوير مشاعر الحزن والألم التى ملأت عليه أنحاء نفسه حين رآها مرتحلة . وبذلك يسير من هذه الناحية فى نفس الخط الذى بدأه بشار حين انصرف عن وصف الظعن ، واهتم بالرحيل والوداع ، بل بالمعانى دون الصور . يقول فى أول مدحته اللامية لبنى جبريل[١] :

هلَّا بكيتَ ظعائناً وحُمولا ... تَرَكَ الفؤادَ فراقُهُمْ مَخْبُولا
أَمَّا الخليطُ فزا لونَ لِفُرْقة ... فمتى تراهمْ راجعينَ قُفولا[٢]
أَتْبَعْتُهم عَيْنَ الرقيبِ مُخَالِسًا ... لَحْظًا كما نَظَرَ الأَسيرُ كَليلا[٣]
تاللهِ ما جَهِلَ السُّرورُ ولا الكَرَى ... أَنَّ الفراقَ من اللقاءِ أُدِيلا
وا أَ لأَيام الصِّبا وزمانِهِ ... لو كانَ أَسْعَفَ بالمُقام قليلا
سَلْ عَيْشَ دهر قد مَضتْ أيامُهُ ... هل يستطيعُ إلى الرجوع سَبيلا
لو عادَ آخِرُهُ كأَوَّلِ عهدِه ... فيما مَضَى لم أَشْفِ منه غليلا
ولرب يوم للصبا قصرته ... بالملهيات وقد يكون طويلا

فهو يذكر الظعائن المفارقة والفراق الذى ينتظره وما سيكابد من أشواق وآلام

---

(١) ديوانه ص : ٥٣ .
(٢) القفول : العائدون .
(٣) المخالس : المسارق . الكليل : الفاتر .

ولا يذكر شيئاً عن الحدوج وثيابها وألوانها وطريقها وحاديها. بل أنت تراه يفسح فى الشطر الأخير من المقدمة للحديث عن نفسه وماضيه وما كان له من متع وملذات لم يزل يذكرها ويحن إليها ويعيش عليها .

وأنت ترى فضلا عن ذلك هذه المطابقات الزاهية غير المعقدة ولا القاتمة التى استكثر منها وأضفى من نفسه وفنه عليها ما جعلها خفيفة مقبولة وما جعلها دالة على صنعته ، ترى هذه المطابقة بين « زائلون لفرقة » و « راجعين قفولا » وبين « اللقاء » و « الفراق » ، وبين « مضت أيام الصبا » و« نستطيع إلى الرجوع سبيلا » وبين « آخر » و « أول » . وبعبارة أخرى ترى هذا الثوب الجديد الزاهى الذى خلعه على معانى هذه المقدمة وأظهرها فيه فإذا هو تتلاحم فيه خيوط الطباق تلاحماً تألف منه نسيج هذه المقدمة مخالفاً لنسيجها عند غيره .

ولم يقنع بإلغاء بعض العناصر التقليدية لهذه المقدمة ، ولا بالتحول بها إلى الحديث عن الفراق والوداع وآثاره ، ولا بالحديث عن أيامه الخالية ، ولا بهذه المطابقات المكثفة الزاهية ، بل انتقل إلى تصوير مجلس لهوه وخمره تصويراً أسهب فيه وتفرد به ، وغاص فيه على المعانى والصور النادرة ، وإن تكن مسألة المعانى والصور المعادة المكرره أو المحورة أو المبتكرة مسألة عسيرة ، وبخاصة إذا عرفنا أنه كان معاصراً لأبى نواس أكبر من اشتهر بوصف الخمر وبتوليده واختراعه لمعانيها وصورها :

وسُلافةٍ صهباءَ بنتِ سُلافة ... صفراءَ لَمَّا تُعْصَرِ التَّسْليلا[1]
أُخْتانِ واحدٌ هى ابنةُ أُختها ... كلتاهما تَدَعُ الصحيحَ عليلا
لا تسقنى الماءَ القَراحَ وهاتِها ... عذراءَ صافيةَ الأَديم شمولا[2]
خَرقاءَ يَرْعُشُ بعضُها من بعضها ... لم تَتَّخِذْ غَيْرَ المِزاج حَليلا[3]
لَطَفَ المِزاجُ لها فَزَيَّن كأْسَها ... بقلادةٍ جُعِلَتْ لها إكليلا

---

(١) التسليل : عصر العنب باليد .
(٢) الشمول : طيبة الرائحة .
(٣) خرقاء : شديدة . الحليل : الزوج .

قُتِلَتْ وعَاجَلها المديرُ ولم تَفِظْ فإذا به قد صَيَّرَتْهُ قتيلا[١]

والمهم هو إفاضته فى وصف الخمر ، وتهالكه عليها وجهره بشربها ، واستغناؤه بوصفها عن وصف الفيافى والقفار وما يمت إليها من المشاهد الصحراوية . وهذا هو ما سبق أن قلناه ورددناه ، فهو دائمًا معنى فى الأجزاء التى تلى مقدماته بالحديث عن الخمر ، وهو دائمًا يطيل فى هذا الحديث ، مما يفرده من بشار بل من أبى نواس .

وهو فوق ذلك عرف كيف يستخدم أدوات البديع التى أشرنا إليها ونقصد بها أداة الطباق ، فقد طابق بين « سلافة صهباء » و « سلافة بيضاء » وبين « الصحيح » و « العليل » ، وبين « الماء القراح » والخمر « العذراء الصافية » . كذلك عرف كيف يستخرج المعانى الطريفة والصور اللطيفة من مثل هذه الخمر البيضاء التى سالت من العنب بدون عصر ، والتى هى أخت لأخرى لم تعصر ، ومثل خوف بعضها من بعض لشدتها ، ومثل عزوفها عن الزواج إلا بالماء ، ومثل قتلها بالماء وشرب الساقى لها بعد مزجها به فإذا هى مقتولة قاتلة إذ أسكرته وصرعته ، ومثل هذا العقد الذى رصع صدرها والذى تكوَّن من الزبد الذى علا سطحها وقد مزجت بالماء .

وتتضح فى المقدمة الثانية التى افتتح بها مدحته اللامية ليزيد بن مزيد الشيبانى قائد هارون الرشيد والتى يصفها ابن المعتز بأنها « جيدة عجيبة مشهورة »[٢] — كل الخصائص السابقة ، فهو من ناحية لم يصف الظعائن ، بل وصف الوداع ، وهو من ناحية ثانية تحدث عن ذكرياته وألم بوصف الخمر ، وانتقل منه إلى وصف رحلته فى بيتين اثنين ركز فيهما كثيراً من المعانى القديمة وأضاف إليها معانى جديدة ، وهو من ناحية ثالثة لم يستخدم لونًا واحداً من ألوان البديع ، بل استخدم لونين هما : الطباق والجناس ، يقول فى أولها[٣] :

أُجْرِرْتُ حَبْلَ خليعٍ فى الصِّبا غَزِلِ وثَمَّرَتْ هِمَمُ العُذَّال فى العَذَلِ[٤]

---

(١) لم تفظ : لم تمت .
(٢) طبقات ابن المعتز ص : ٢٣٦ .
(٣) ديوانه ص : ١ .
(٤) أجررت حبل خليع : يريد أنه أمعن فى البطالة واللهو .

هاج البكاءعلى العينِ الطموح هوًى ... مُفَرَّقٌ بين توديعٍ ومُحْتَمَلِ[١]
كيف السُّلُوُّ لقلب راح مُخْتَبَلا ... يَهْذى بصاحب قلب غير مُخْتَبَلِ
عَاصَى العَزَاءَ عَداةَ البين مُنْهَمِلٌ ... من الدموع جَرَى فى إثرِ مُنْهَمِلِ[٢]
لولا مُداراةُ دَمْع العين لانكشفتْ ... منِّى سَرائرُ لم تَظْهَرْ ولم تُخَلِ
أما كَفَى البينَ أَنْ أُرْمَى بأَسْهُمِه ... حتى رَمانى بِلَحْظِ الأَعْيُنِ النُّجُلِ

فهو لا يصور الظعائن تصويراً تقليدياً ، بل يصور يوم الفراق وساعات الوداع ، ودموعه التى أسالها التحمل والتوديع ، وتماسكه إزاء هذا المنظر حتى كادت نفسه تذوب أسفاً وحسرة وموجدة .

ثم أخذ يتحدث عن أيامه الخالية وبهجة حياته ونعمها وما تمتع به من معاقرة الخمر ، ومعابثة الحسان والاستماع إلى القيان ، منحياً على الزمان لأنه هو الذى اغتصب منه ملذاته وسلبه أفراحه ومسراته :

ماذا على الدهرِ لو لانَت عَرِيكَتُهُ ... وَرَدَّ فى الرأْس مِنِّى سَكْرَةَ الخَزَلِ[٣]
جُرْمُ الحوادثِ عندى أنها اخْتَلَسَتْ ... منِّى بناتِ غذَاءِ الكرْم والكِلَلِ[٤]
وربَّ يومٍ من اللَّذاتِ مُحْتَضَر ... قَصَّرْتُهُ بلقاءِ الرَّاح والخُلَلِ[٥]
قد كانَ دهرى وما بى اليومَ من كبرٍ ... شُرْبَ المُدام وعَزْفَ القَيْنَةِ العُطُلِ[٦]
كم قد قطعتُ وعينُ الدَّهْرِ راقدةٌ ... أَيَّامَهُ بالصِّبا فى اللهوِ والجَذَلِ[٧]

فمسلم مغرم بالحديث عن نفسه فى ثنايا مقدماته حتى ليفرد لها قطعاً كبيرة منها على نحو ما نرى فى هذه الأبيات . فهو يسترجع ذكرياته ويتوجع على أيامه مازجاً

---

(١) العين الطموح : التى تنظر إلى الأحبة وهم مرتحلون .
(٢) العزاء : التصبر .
(٣) العريكة : الطبيعة .
(٤) اختلست : استرقت .
(٥) محتضر : احتضرت فيه اللذات وخالطها . الخلل . الصديقات .
(٦) العطل : أى خليت الصبا عن توبة لاعن كبر .
(٧) راقدة : غافلة . الجذل : الفرح .

استرجاعه وتوجعه بوصفه للخمر والقيان وسائل لهوه وأسباب مسرته ، ولائمًا للأيام وكوارثها ونوائبها التى تكاثرت عليه وكدرت حياته .

واختتم المقدمة ببيتين وصف فيهما رحلته إلى ممدوحه وناقته وصفًا مركزاً دقيقًا :

وبلدة لمطايا الركب مُنْضِيةٍ أَنْضَيْتُها بِوَجِيفِ الأَيْنُقُ الذُّلُلِ[1]
فِيمَ المُقَامُ وهذا النَّجْمُ مُعْتَرِضاً دَنَا النَّجاءُ وحانَ السَّيْرُ فَارْتَحِلِ

ومع أنه تخنف كثيراً من الأوصاف الصحراوية ومن التوسع فيها فإنه ركزها وكثفها وصاغها صياغة جديدة ، فإذا هذه المفاوز التى تُتْعِبَ النوقَ وتُهْزِلها تَتْعَبُ وتَهْزَل لكثرة سيره بنوقه فيها ، بل إذا هذه المعانى الطريفة التى اعتمد عليها أبو تمام من غير شك فى بيته المشهور[2] :

رعتــه الفيافى بعد ما كان حقبة رَعَاها وماء الروض يَنْهَلُّ ساكبه

فإنك ترى مشابه بين الفكرتين مع اختلاف بين الأسلوبين .

وأعد النظر فى الأبيات جميعها من حيث إخراجُها وصناعتها فإنك تلاحظ استواء أساوبها وقوته وضخامته ونصاعته ، سواء فى انتخابه للقوالب والألفاظ العربية الأصيلة المصقولة أو فى اعتماده على أدوات البديع من طباق وجناس . فهو يجانس فى البيت الأول بين « العذل » و « العذال » . وهو يطابق فى البيت الثانى بين « التوديع » الذى فيه شىء من التريث والانتظار وبين « الاحتمال » وما فيه من تسرع واستعجال . وهو يطابق فى البيت الثالث بين « المختبل » و « غير المختبل » وهو يطابق فى البيت الخامس بين « انكشفت » و « لم تظهر » . وهو يشاكل فى البيت السادس بين « أسهم البين » و « ألحاظ الأعين النجل » أى سهامها . أما البيت الحادى عشر وهو الذى صور فيه رحلته وناقته فيستخدم فيه طباقًا معقداً فيه التناقض وفيه التضاد . فإن هذه البلدة التى قطعها مُتْعِبَةٌ مُتْعَبَةٌ ، مُتْعِبَةٌ لأنها تُهْزِلُ النوق وتُضْمِرُها ، ومُتْعَبَةٌ لأنه أهْزَلَها وأضْمَرَها لطول سفره فيها .

---

(١) الذلل : الضامرات . الوجيف : ضرب من السير .
(٢) ديوانه ١ : ١٤٧ .

كذلك كان مسلم يصنع مقدماته كلها متأثراً بمذهب البديع الذى جعله عمدته فى فنه وناثراً فيها وصفه لذكريات لهوه وخمره ، ولم يزل يلح على وصف الخمر فى مقدماته السابقة والتالية حتى أكثر منه كأنما يريد بإلحاحه عليه واستكثاره منه أن يؤصله ويرسخه بدلا من وصف الصحراء . فإن فى ديوانه مقدمتين غزليتين صور فيهما — بجانب شرحه لتباريح حبه وما يقاسى من الوجد — مجالس خمره وأنسه . فهو فى مقدمة القصيدة الدالية التى يمدح فيها محمد بن منصور يصف مجلس لهوه وما شاع فيه من خمر وغناء وصفاً يستغرق عشرين بيتاً فضلا عن ثلاثة عشر بيتاً تغزل فيها غزلا عفيفاً ، ونختار منها قوله[1] :

نَبَا بهِ الوسادُ وامْتَنَع الرُّقادُ
وصَادَه غزَالٌ يُرْمَى فما يصادُ
وَيْلِى أنا مريضٌ مالِىَ لا أُعادُ
أبكى على فؤادى إذْ ذهبَ الفؤادُ
ولو بَكَى لِشىءٍ بَكى لىَ البِعاد
أصبحتُ فى جهاد إنَّ الهوى جهادُ
يا قاتلى وقَتْلى فى غيرِ السَّدادُ
صَرَمْتَنى ومِنِّى صفا لك الوِدادُ
عُوِّدْتُ منك حتى قَدْ مَلَّنى العُوَّادُ
وربَّ لَذَّة لى يتْبَعُها القيادُ
أحْيَيْتُها وإنى النَّعيمُ والسُّهادُ
وقَهْوة شَمول مَنْشَئُوها السوادُ
كانتْ بعهدِ نوحٍ أو عَصَّرَتْها عادُ

---

(١) ديوانه ص : ٢٤٠ .

سَبأتُها وحَوْلى خضارِمٌ أنْجَادُ[1]
وخُلْدُنا مقيمٌ ليس لهُ نفادُ
أكْؤُسُنا ملاءٌ صَادِرَةٌ وُرَّادُ
وعندنا فتاةٌ تَزْهَى بها الأعوادُ
وعندنا غزالٌ بِطرْفه يَصْطادُ
فلم يَزَلْ يَسْقينا صرفاً لها اتِّقادُ
حتى انْثَنَى صَرِيعًا كَفَّى لهُ وِسادُ

ولا تظنن أن مسلمًا خرج كثيراً على الأوزان الطويلة الضخمة فى مدائحه ، فإن ذلك شذوذ عن القاعدة العامة ، ومنه هذه المدحة التى صبها فى مجزوء الرجز . على أن ذلك يدل من ناحية أخرى على أن شعراء هذا العصر كانوا يختارون للقصائد التى يقدمون لها بوصف عواطفهم الصادقة وتجاربهم الحقيقية الأوزان القصيرة الراقصة والألفاظ العذبة الرشيقة التى تنسجم أشد الانسجام مع أجواء الرقص والغناء والقصف والصخب التى كانوا يعيشون فيها ، وسبق أن رأينا مظاهر من ذلك عند بشار وأبى نواس :

ويتفق مسلم مع بشار وأبى نواس فى شىء آخر ، وهو أنه أقل من افتتاح مدائحه بالمقدمة الغزلية على نحو ما أقلوا من استهلال مدائحهم بها . وهى ظاهرة أرجعناها إلى أنهم لم يستطيعوا تحميلها غزلهم الحقيقى المادى . ومن أجل ذلك فإنهم عدلوا عنها إلى المقطعات الغزلية المستقلة التى أفردوها للغزل وتحدثوا فيها حديثًا صريحًا عن صلاتهم بالإماء والقيان اللائى كن يبذلن أنفسهن لهم ، دون أن يكون عليهم جناح أو يحول بينهم وبين ذلك مراعاة للعرف وخشية من الممدوحين ورجال الدولة الذين كانوا ينشدون فى مجالسهم الرسمية مدائحهم فيهم ، مما أدى إلى ندرة هذه المقدمة فى صدور قصائدهم .

على أن غزل مسلم فى مجموعه يختلف بعض الاختلاف عن غزل بشار وأبى نواس

(١) الخضرم : السيد الحمول . الأنجاد : الشجعان .

إذ كان يبقى فيه على نفسه ويحتفظ بكرامته دون أن يمجن أو يفحش[١]، أما بشار وأبو نواس فأمعنا فى المجون والإفحاش. غير أن الصفة الجامعة بينهم هى أنهم تغزلوا فى أوائل مدائحهم غزلا عفيفًا يقترب اقترابًا شديداً من أصحاب الهوى العذرى الذى يصور آلام العاشق وحنينه وحبه الذى يلذع فؤاده[٢]. وقدأشرنا إلى ذلك فى خلال حديثنا عن مقدمات بشار وأبى نواس، وأبيات مسلم التى أوردناها تصور بدورها هذا الجانب خير تصوير: فقد وصف فيها سهره وأرقه وخضوعه وتذلله للمحبوب الذى فتنه وذهب بعقله، والذى مضى يمعن فى صده ومطله حتى أسقمه واصطلحت عليه العلل والأمراض، وحتى أخذ العواد يزورونه مواسين له ومخففين عنه، بل إن هذا المحبوب قتله قتلا، وإنه ليتوسل إليه أن يرحمه لعل الحياة تدب فيه من جديد.

وسبق أن رددنا مراراً وتكراراً أنه ألم بوصف الخمر فى الكثرة المطلقة من مقدماته على تعدد أشكالها، وهو وصف أفاض فيه وركز عليهفيها تركيزاً شديداً مبتغيًا تثبيته لعله يزحم وصف الصحراء ومناظرها. ويحل مكانها ويُسْتَغْنَى به عنها. وهو فى هذه المقدمة الغزلية يمسح المجال واسعًا للحديث عنها وعن نوعها وعتقها وموطنها، وعن انغماسه فيها ومتعته بها، فى مجلس من مجالسه ضمه وضم خيرة رفاقه، بينما كان القيان يصدحن بالغناء ويضربن على الأعواد، والساقى الرشيق يدور عليه وعلى رفاقه بكؤوس الخمر: فإذا هم تكتمل لهم اللذة والنشوة. وإذا الساقى يأسر ألبابهم والقيان يخلبن أفئدتهم.

ويعود مسلم فى مقدمته الغزلية الثانية التى افتتح بها مدحته الميمية فى زيد ابن مسلم الحنفى إلى مذهبه وطريقته سواء من حيث البناء الضخم والوزن الطويل أو من حيث الاعتماد على أدوات البديع، كما يتغنى فيها بالمعانى الغزلية العفيفة ويصف أيضًا الخمر وتهالكه عليها، يقول[٣]:

أَأُعْلِنُ ما بى أَم أُسِرُّ فَأَكْتُمُ ... وكيف وفى وجهى من الحب مَعْلَمُ[٤]

(١) العصر العباسى الأول ص: ٢٦٦.
(٢) المصدر السابق ص: ٢١٦.
(٣) ديوانه ص: ١٧٧.
(٤) المعلم: العلامة.

أَثِيبُوا بِوُدٍّ أَو أَثيبوا بِهَجْرَةٍ ولا تَقْتلُونى إنَّ قَتلِى مُحرَّمُ
طفَوْتُ على بَحْرِ الهوى فَدَعَوْتُكم دُعَاءَ غَرِيق مَالَهُ مُتَعــوم
لِتَسْتَنْقِذُونى أَو تُغيثوا برَحْمَة فلم تَسْتَجيبوا لى ولم تَتَرَحَّمُوا
ركبتُ على اسمِ اللهِ بَحْرَ هواكم فيا رَبِّ سَلِّمْ أَنْتَ أَنْتَ المُسَلِّمُ
تَوَسَّطْتُ بَحْرَ الحب حين ركبتُهُ فَغَرَّقَنى آذِيُّــهُ المُتَلَطِّمُ[1]
فوالله مــا أَدرى وإنِّى لهــائمٌ أَأَرْجِعُ خلفى فيه أَم أَتَقَــدَّمُ

فهو يصف حبه لهذا المحبوب الذى لم يذكر اسمه ، ويمضى فى وصف نزوع نفسه إليه ، وما يكابد من الأشواق لصده عنه حتى غرقه فى بحر حبه ولم ينقذه ولا هم بإغاثته ، دون أن يمجن أو يتعابث .

ولكن انظر إلى صناعته للأبيات فإنك تجد فيها الجناس والطباق ، فهو يطابق فى البيت الأول بين « أعلن » و « أسر » ، وفى البيت الثانى بين « الود » وما فيه من معانى الوصل والمحبة وبين « الهَجْرَة » وما تحمل من معانى المطل والبعد ، كما يجانس فى نفس البيت بين « تقتل » و « القتل » ، وفى البيت الخامس بين « سَلِّم » و « المُسَلِّم » ، ويطابق أيضًا فى البيت السابع بين « أرجع » و « أتقدم » .

وانظر إلى هذه الصورة الكلية لا الجزئية التى رسمها فى الأبيات كلها ، وجعل كل بيت منها جزءاً من الصورة ، ولم تزل الأبيات تتوالى والأجزاء تتلاحم وتتكامل حتى تكونت الصورة الكبرى . فقد تمثل مشهد البحر والسباحة فيه وأمواجه الهائجة المائجة ، والغرق والإغاثة ، ونقل كل ذلك إلى هذه المقدمة وصور به قصة حبه ، إذ راح يسبح فى بحر حب صاحبته فأغرقته أمواج صدها فإذا هو غريق يصيح ويصرخ طالبًا النجدة والإغاثة ، فلم تستمع إليه محبوبته ، ولا نهضت لإنقاذه ، بل تركته غريقًا فى بحر حبها تتقاذفه الأمواج وتطوح به .

وانتقل بعد ذلك لا إلى وصف الصحراء بل إلى وصف الخمر وصاحبيه اللذين

---

(١) الأذى : الموج .

كانا يشركانه فى معاقرتها وآثارها على أجسامهم ووجوههم :

إذا شئتما أن تسقياني مُدامَة ... فلا تقتلاها كل مَيْت مُحَرَّمُ
خَلَطنا دماً من كَرْمَةٍ بِدِمَائِنا ... فَأَظْهَرَ فى الألوان منا الدَّمَ الدَّمُ
وَيَقْظَى يَبِيتُ القَوْمُ فيها بِسكْرَة ... يصبهباءَ صَرْعَاها من السُّكْرِ نُوَّمُ[1]
فأغضت وللأكواس فى وجه ربها ... لهيب كلون الورد أو هو أضْرَمُ[2]

فهو يحاول الإطراف فى المعانى مستغلا فى البيت الأول الأحكام الفقهية ، إذ طلب إلى صاحبيه أن يصبا له فى كأسه خمراً صافية غير ممزوجة لأنها إن مزجت بالماء قتلت والميتة لا تؤكل . أما فى البيت الثانى فيبين كيف أن هذه الخمر كانت حمراء اللون قانية كأنها الدم ، فلما شربوها جرت فى عروقهم واختلطت بدمائهم : فإذا هم تتورد وجوههم .

وكأن مقدماته أصبحت شركة بين ألوان البديع من طباق وجناس وتصوير واستخراج لدقائق المعانى وخفاياها وطرائفها ، وبين وصف الخمر الذى استكثر منه فيها ، فهو إن وصف الأطلال لا يصف أطلالا لمنازل حقيقية ، بل يصف أطلالاً لمرابع وهمية بدافع التقليد الذى يفتن فيه بالطباق والجناس . وهو إن تغزل فإنه لا يصرح باسم صاحبته ، بل يردد المعانى العذرية مستعيناً على إظهارها بالطباق والجناس . وهو إن صور الظعائن لا يصور ظعائن مرتحلات ، بل يصف الوداع وما يثير فى نفسه من الآلام وما يُوَلِّد من المعانى التى يعمد فيها أيضًا إلى الطباق والجناس لكى يبرزها ويوضحها . وهو فوق هذا كله يتبع وصفه للأطلال أو للوداع أو للغزل بوصف الخمر وصفًا مسهبًا .

وبجانب المقدمات التقليدية السابقة مقدمتان أخريان هما : مقدمة وصف الطيف ، ومقدمة الشباب والشيب .

أما مقدمه وصف الطيف فافتتح بها ثلاث مدائح[3] . ونراه فيها يحاول التجديد

---

(١) ويقظى : يعنى ليله يقظى واليقظة إنما تكون لمن يسهرها .
(٢) أغضت : كفت ، يريد انقضى شربهم وقد سكروا .
(٣) ديوانه ص : ٦٠ ، ٦٩ ، ٢٠٠

والإطراف فى بعض المعانى على نحو ما نرى فى مقدمة قصيدته الميمية التى يمدح فيها يزيد بن مزيد الشيبانى[١] :

طيفَ الخيالِ حَمِدْنا منك إلمامَا ... داوَيْت سُقْمًا وقد هيَّجْتَ أسقامَا
لله واشٍ رَعَى زَوْرًا أَلَمَّ بنا ... لو كانَ يَمْنَعنا فى النومِ أحلامَا
بتنا هُجودًا وباتَ الليلَ حَارِسَنا ... حتى إذا الفَلَقُ اسْتَعْلَى له نَاما[٢]
قد قلت والصبحُ عندى غيرُ مُغْتَبِطٍ ... ما كَان أطيب هذا الليلَ لو داما

فقد زاره طيف محبوبته فسر به وأطفأ شوقه ، ولكنه لم يلبث أن فارقه فأثار أشواقه مرة ثانية . وأطرف فى البيتين الثانى والثالث بهذا الواشى الذى ذكره والذى نصب نفسه حارساً عليه لكى يحول بينه وبين زيارة طيف صاحبته له ، غير أنه زاره ، وأمضى معه ليلة سعيدة تمنى لو طالت وامتدت على رغم من هذا الواشى الذى قضى الليل ساهراً وكان مسلم يتمتع بزيارة الطيف له .

ويلم فى مقدمة قصيدته الدالية التى مدح بها هارون الرشيد بمعنى طريف آخر وهو أنه هيأ نفسه لاستقبال طيف محبوبته ، فأجابه ، غير أنه حين سرى إليه وألم به وجده لا يزال يقظان فانصرف عنه ، فعاد يحاول النوم من جديد لعله يحظى بزيارة أخرى منه ، ولكنه ظل ساهراً على حين كان الناس يغطون فى النوم غطيطاً ، وكأنما أصيبت عيناه بالرمد فأمضى ليله يقاسى تباريح الشوق[٣] :

خيالٌ من النائى الهوَى المُتَبَعِّدِ ... سَرى فسَرى عنه عَزِيمُ التجَلُّدِ[٤]
دعا وطرًا حتى إذا ما أجابَهُ ... أطاف بِمَطْرُوف الجفونِ مُسهَّدِ[٥]
فباتَ يُناجى النجمَ حتى كأنما ... يخَالِسُ عيْنَيْهِ الكَرى ليْلُ أَرْمَدِ
إذا أَلِفَ النومُ الجفون تَقَسمت ... كراه تباريح الهـوى المُتَجدِّد

(١) ديوانه ص : ٦٠
(٢) وبات حارسنا : يعنى وبات الواشى الليل حارساً لنا . استعل الفلق : يعنى الصبح .
(٣) ديوانه ص : ٦٩ .
(٤) المتبعد : البعيد . عزيم التجلد : تصبره .
(٥) الوطر هنا : الخيال . المطروف : الذى لايقدر على تقليب مقلتيه من دائهما .

وواضح أنه لم يثبت فى المقدمتين السابقتين العناصر البدوية والمظاهر الصحراوية من نوق ومفاوز ، تلك التى كان يثبتها الشعراء الجاهليون والأمويون ، غير أنه احتفظ ببعضها فى المقدمة الثالثة ، ولكن فى خفة وسرعة ، فإنه يعجب فيها من طيف صاحبته كيف سرى إليه مع أنه بعيد منه ، وكيف تحمل مشقة السفر ، وتجشم مشقة الرحلة . يقول (١) :

طرقَ الخيالُ فهاجَ لى بَلْبَالا أهدى إلىّ صبابةً وخَبَالا(٢)
أنَّى اهْتَدَى حتى أتانى زائرًا مُتَنكِّرًا يتَعَسَّفُ الأهوالا
بأبى وأُمِّى مَنْ طَلَبْتُ نَوالَهُ إذْ زارنى فَأَبَى عَلَىَّ دَلَالا

وإذا كان قد أهمل وصف الخمر فى المقدمتين السالفتين فإنه عاد إلى وصفها فى هذه المقدمة وصفًا استغرق نَيفًا وثلاثين بيتًا ، تحدث فيها عن مجلس الخمر الذى أعده لندمائه بين الكروم ، وما كان يطفح به من القيان والغناء ، وكيف أن كل واحد منهم بعد أن عب من كؤوس الخمر وانتشى انفرد بقينة فاتنة :

ومُهذَّبين أكارم لِأكارمٍ أدباءَ حازوا نَجْدةً وكمالا
ثارُوا إلى صَفْقِ الشَّمولِ فأَشْعَلوا نيرانَ حَرْبٍ كؤوسها إشعالا(٣)
بَوَّأتُهُم غرَفاً جعلت تُرابها مدَرَ العَبيرِ وعَنْبرًا قَسطالا(٤)
وخَلَوْا بأنواعِ النعيمِ وَلذَّة دامتْ وعيش ما يُريدُ زَوالا
فى مجلس بين الكروم مُظلَّل جُعِلتْ لهُ أغصانُهُن ظِلالا
ولديهمُ حورُ القيانِ كأنها غِزْلانُ وحش يَرْتَعِين رِمالا
قد حاز كلُّ فتًى لديهِ غادةً رَوْدَ الشبابِ خَرِيدةً مِعطالا(٥)

---

(١) ديوانه ص : ٢٠٠ .
(٢) البلبال : حرارة فى الجوف . الخبال : أذى الحب .
(٣) الصفق : المزج .
(٤) المدر : الذرات . القسطال : رائحة العنبر المتضوعة .
(٥) رود : ناعمة . خريدة : حيية . معطال : خالية من الحلى .

فأنت تراه دائم الحديث عن نفسه وذكرياته ، بعد أن يفتتح مدائحه بأى لون من ألوان المقدمات ، وأنت تراه دائم الوصف لمجالس خمره وما كانت تطفح به من غناء وإماء وسقاة وقيان ، مما يفرده من كل الشعراء الذين ألممنا بمقدماتهم سواء كانوا أمويين أو عباسيين ، ومما يبين كيف أنه مضى فى تجديده فى أشكال مقدماته حاذفاً من أغلبها وصف الصحراء ومثبتاً مكانه وصف الخمر .

أما مقدمة الشباب والشيب فاستهل بها قصيدتين من قصائده . وهو فى مفتتح أولاهما يعلن أنه نزع عن اللهو وتاب وأناب لأن الأيام وعظته إذ ابتلته بمصائبها وخطوبها التى أشابته وهو لا يزال صغيراً . ويستعيد عهده الماضى ، عهد الشباب وكيف أنه كان يفتن الحسان . غير أنه سرعان ما يتماسك ويبقى على نفسه كرامة واحتشاماً . ويختتمها بنصيحة يقدمها إلى الفتيان لعلهم يتمتعون بشبابهم ، يقول[١] :

هَجَرَ الصِّبا وأَنابَ وهو طَرُوبُ ... ولقد يكونُ وما يكادُ يُنِيبُ[٢]
دَرَجتْ غَضَارَتُه لأَوَّل نَكْبَة ... ومشَى على رَيْقِ الشبابِ مشيبُ[٣]
قَذَفَتْ به الأَيامُ بين قوارعٍ ... تأْتى بهنَّ حوادثٌ وخطوبُ
للهِ أَنتَ إذ الصِّبا بك مُولَع ... وإذ الهَوَى لكَ جالبٌ مجْلُوبُ
حَلَّت حُبَاك صبابة مكتومة ... نَطَقَتْ بها من مُقْلَتَيْك غُرُوب[٤]
هلَّا عَجِلْتَ عَلَى الدُّموعِ بِعَزْمة ... بل لم يكن لك فى العَزَاءِ نصيبُ
خُذ من شَبابِكَ للصِّبا أَيَّامَهُ ... هل تستطيعُ اللَّهْوَ حين تشيبُ

وهو فى هذه المقدمة لا يخرج على مذهبه الفنى وطريقته فى التعبير سواء من حيث أسلوبه المتين الرصين المستقيم . أو من حيث اختياره للأوزان الطوال غير القصار إذ صاغ القصيدة فى بحر الكامل دون تجزىء . أو من حيث استخدامه لأدوات البديع من طباق وجناس . فهو يطابق فى البيت الأول بين « أناب » و « ما ينيب » ، وفى

---

(١) ديوانه ص : ١١٢ .
(٢) أناب : رجع .
(٣) درجت : ذهبت . ريق الشباب : حسنه .
(٤) حلت حباك : سفهتك . الغروب : الدموع .

البيت الثانى بين « الشباب » و « الشيب » ، وهو يجانس فى البيت الثالث بين « جالب » و « مجلوب » . فصناعة المقدمة والتمهل فى نسجها وحبكها وتطريزها بزخرف البديع أساس لا يشذ عنه ولا يخرج عليه ، بل يراعيه بكل دقة وتريث .

ويُبَيِّنُ فى المقدمة الثانية كيف أن جيوش الشيب غزت رأسه وهو لا يزال حدثًا ، ويفتن فى تصوير اختفاء شعره الأسود وحلول الشعر الأبيض مكانه ، مشبهًا الشعر الأبيض بالنجوم والشعر الأسود بالليل . ولا يجزع من ذلك بل يصبر نفسه ويستقبل مشيبه بالرضا والارتياح مع أنه يؤذن بعجزه وموته ، يقول[١] :

طلائعُ شيب سَيْرُ أسرعِها رَسْلُ يُرِدْنَ شبابى أنْ يُقالَ له كَهْلُ[٢]
نجوم هىَ الليلُ الذى زالَ تحتها تَفَارَطُ شَتَّى ثم يَجْمَعُها أَفَلُ[٣]
فإن تُبْقِنِى الأَيامُ تَجْنُبْنى العَصَا وإن تُفْنِنِى فكُلٌّ حَىٍّ لها أَكل[٤]

وفى هذه الأبيات أيضًا يظل يراعى الطباق والتصوير فضلا عن ضخامة الوزن ، وزن الطويل ، وفخامة الألفاظ . فهو يطابق فى البيت الأول بين « الشباب » و « الشيب » ، وفى البيت الثانى بين « تفارط » و « تتجمع » ، وفى البيت الثالث بين « تبقى » و « تفنى » . ويُظْهر فى البيت الثانى كذلك الشعرات البيض التى أخذت تلمع برأسه بين الشعر الأسود فى صورة طريفة . فهذه الشعرات البيض التى تشبه النجوم فى بياضها ولمعانها كانت سوداء فى أصلها تشبه ظلمة الليل ، وهى تتقدم وتنتشر متفرقة وتتلوها شعرات أخر ، وما تزال تتوالى وتتلاقى حتى تشمل رأسه وتعمه وتغطى على الشعرات البيض الأول .

ولعل فى الأمثلة التى ضربناها ما يوضح كيف أن مسلمًا وفق بين فنه وحياته ، فقد تمسك بالأطر الخارجية للمقدمات الموروثة من وصف الأطلال ، ووصف الظعن إلى المقدمة الغزلية ومقدمة وصف الطيف ومقدمة الشباب والشيب . وهو تمسك لم

---

(١) ديوانه ص : ٨٨ .
(٢) رسل : رفيق .
(٣) تفارط شتى : تتتابع متفرقة شيئاً بعد شىء .. يجمعها أفل : يريد أنه إذا ابيض رأسه أجمع غابت الشيبات الأول .
(٤) تجنبنى العصا : تقودنى .

يسلمه إلى التقليد والجمود ، فقد عدل فى أشكالها بحذف أغلب العناصر البدوية منها ، وأشاع فيها الطباق والجناس والتصوير ، كما جدد فى مضامينها الموضوعية إذ صب فيها وجداناته وتجاربه الصادقة التى تُمثّل عهود حبه على مسارح شبابه ، مسارح اللهو والخمر والغناء ، ولم يزل يتغنى بذكرياته مزاوجًا بينها وبين وصف الخمر حتى أصل هذا الجزء فى معظمها وحتى طوعها للتعبير عن واقع حياته .

٣

النهوض بالمقدمة الخمرية

ولم يقنع مسلم باستكثاره من وصف الخمر فى تضاعيف مقدماته التقليدية التى افتتح بها قسمًا من مدائحه ، ولا بتأصيله لهذا الوصف ، ولا بوصله وصلا رائعًا بخيوط النسيج القديم ، وإنما ظل يحاول ويجرب حتى فصله وحقق الاستقلال له . فقد استهل ثلاث مدائح بوصف الخمر وصفًا قصره عليها وعلى الحديث عن مجالسها وما كان يشيع فيها من وسائل اللهو والمتعة من غناء وقصف . وبذلك استطاع النهوض بهذا التقليد الجديد محتذيًا بأبى نواس الذى أرسى أصوله الأولى . وبذلك أيضًا يكون من الخطأ الحكم على ثورة أبى نواس ودعوته إلى التجديد بأنها لم تؤت ثمارها بل ماتت فى مهدها .

ومن بنا أن أبا نواس لم يفتتح مدائحه للرشيد بوصف الخمر ، وإن يكن قد ضمن بعض مقدماته الموروثة لمدائحه فيه وصفًا لها . ومرجع ذلك كما أسلفنا أن أبا نواس كان أكبر من ذاع صيته بوصف الخمر ، وأشهر من عرف بالمجون والفجور كما تصوره الأخبار المروية عنه ، مما جعله لا يجرؤ على افتتاح مدائحه للرشيد بتصوير خلاعته وتهتكه ، ومما جعل الرشيد ينفر منه ويهم به ، حين وصف الخمر بعد أن وصف الأطلال فى مدحته الهمزية له . ذلك أنه إذا ارتضى وصفه لفسقه وعبثه وقصفه فى حضرته فمعنى ذلك أنه يقره عليها ويشجعه فيها . على أنه فى الوقت نفسه تقبل من شعراء آخرين كانوا معاصرين له مثل أشجع السلمى ومسلم بن الوليد ممن لم يشتهروا بالمجون والفجور مثله استهلالهم لبعض مدائحهم فيه بوصف الخمر .

فالمسألة تتلخص — فيما يبدو — فى أن الرشيد لم يُرِد أن يقف حائلا دون التقاليد الفنية الجديدة المستمدة من واقع الحياة ، ولا أراد أن يصور للجمهور أنه مُتَعَبِّدٌ لها ، راض عنها ، مشجع لها حتى إذا صدرت عن أشهر المجان والعابثين . ولعله من أجل ذلك سلك طريقًا وسطًا بين الأمرين ، إذ ارتضى وصف أشجع ومسلم للخمر فى صدور مدائحهم له ، وهدد أبا نواس وتوعده حين وصفها . ومن المعروف أن مسلمًا لم يكن يسرف فى لهوه إسراف أبى نواس ، ولا كان يجهر بقصفه جهره بقصفه ، وإنما كان يتستر بعض التستر ، كما كان يحافظ على كرامته ووقاره . ومن أجل ذلك نرى الرشيد لا يغضب منه حين سمعه يقدم لمدحته السينية له بتصوير مجلس لهوه وما كان يطفح به من خمر وظرفاء وإماء[١] .

وعلى نحو ما لاحظنا أنه أهمل وصف الصحراء والرحلة والناقة فى المقدمات التقليدية التى وصف فى ثناياها الخمر ، نلاحظ كذلك أنه أسقط من القصائد التى افتتحها بوصف الخمر تصوير الفيافى والنوق . وكأنه بذلك يؤصل مذهب التجديد ويرسخه من جميع النواحى . فهو إن قدم لمدائحه بالأشكال الموروثة من الفواتح فإنه يحذف من أكثرها وصف الصحراء والرحلة ، وهو إن افتتح قصائده بتصوير الخمر فإنه يحذف أيضًا وصف الصحراء والرحلة .

وها هو ذا يستهل مدحته البائية لهاشم ابن عم يزيد القرشى بوصف مجلس من مجالس لهوه متسعًا فى الحديث عن تصابيه وإمعانه فى التهاجن ، وعكوفه على الخمر التى ألم بجميع صفاتها وأدواتها من عتق ولون ورائحه وكؤوس وساق ، يقول[٢] :

لَمْ أَصْحُ من لذة لا لا ولا طربِ ... وكيف يصحو قرينُ اللَّهْوِ واللَّعبِ
نَفْسى تُنازعنى اللَّذاتِ دَائبــةً ... وإنما اللَّهْوُ واللَّذاتُ من أَرَبى
كم ليلة بتُّ مسرورًا ومُغْتبطًا ... جذلانَ مُنْغَمسًا فى اللهوِ والطربِ
وشادن قال : هاكَ الكأس قلتُ لهُ ... هاتِ اسقنى من نِتاجِ الماءِ والعِنَبِ
فقام يسعَى إلى دَنٍّ فَسَلَّلها ... حمراءَ بكرًا لها عَشْرٌ من الحِقَبِ

(١) ديوانه ص : ٢٧٩ .
(٢) ديوانه ص : ٢٠٩ .

مَحْجُوبةً من عيونِ الناس ليس لها ... فى غير بيت بنى ساسانَ من نَسَبِ
كأنها وصَبِيبُ الماء يَقْرعُها ... دُرٌّ تَحدَّر من سِلْك على ذهبِ
لم يَغْذُها بمصيفِ القَيْظِ بائِعُها ... ولا غذَاها بحرِّ الشمسِ واللَّهب
كانتْ ذخيرةَ دهقان يَضِنُّ بها ... مكسوبةً من حَلال غَيْر مُكْتَسبِ
يُدْعَى أَبَاها ويُغْذَاها فيا عجبًا ... من ابنة صَيَّروها غِذْيَةً لأَبِ
كأنما ضُمِّنت مسكًا يفوحُ بِهِ ... أو عنبر الهِنْدِ أو طيبًا من السَّخَبِ
يكادُ أنْ تَتلاشى كلما مُزِجَتْ ... فى الكأسِ لولا بقايا الرِّيح والحَبَبِ[1]
مُمِيتةٌ لهمومِ القلبِ مُحْيِيةٌ ... لِلْبِشْرِ نافيةٌ لِلْفِكْرِ والوصبِ
يسعَى بها مُخْطَفُ الأَحشاءِ مُخْتَلَقٌ ... قَد تَمَّ فى حسن تركيب وفى أدبِ[2]
لا شيءَ أَحسنُ منها حين نشَربُها ... صِرْفًا ونبدأُ بعدَ الشُّربِ بِالنُّخبِ[3]

وهذا هو الذى دعا أبو نواس له وسعى إليه ؛ فقد ردد مراراً أنه ينبغى على الشعراء العباسيين أن يستمدوا من واقع حياتهم وما فيه من المباهج والنعم ومن الملذات والمتع ألحانهم المميزة التى يعزفونها فى افتتاحات قصائدهم دون أن يلتفتوا إلى نبوها عن الذوق ومخالفتها للعرف والخلق . ولعل شاعراً من شعراء عصره لم يشركه فى تبنى هذه الدعوة وتطبيقها مثل مسلم . فقد صور فى المقدمة السابقة حياته بصدق مرسلا نفسه على سجيتها وطبيعتها ، ومتغنياً بأهوائها ونوازعها وعواطفها على أنغام الكؤوس والأصوات المنبعثة من صب الخمر فيها ؛ وفى جو مفعم بمظاهر الفرح والبهجة والنشوة ؛ عابق برائحة الخمر الفواحة . وأيضًا فإنه نثر فيها غير معنى من المعانى الطريفة ، وغير صورة من الصور النادرة التى ردد أبو نواس بعضها وأضاف مسلم إليها إذ كان « جيد القول فى الشراب ، وكثير من الرواة يقرنه بأبى نواس[4] » .

ومن تلك المعانى التى أظهرها نسبة الخمر إلى بنى ساسان ، ووصفه لطريقة

---

(١) السخب : حب القرنفل .
(٢) المختلق : حسن الخلق . المخطف : الضامر .
(٣) النخب : جمع نخبة ، وهى الكأس الكبير .
(٤) الأغانى (طبعة بيروت) ١٨ : ٣١٥ .

عصرها وطبخها ، وكيف أنها لم تطبخ على نار ولا رأتها الشمس . ومنها وصفه لرائحتها وتشبيهه لها برائحة المسك والعنبر والقرنفل ، كما أظهر بعض المفارقات بين المعانى من مثل أن الدهقان هو والد الخمر ومع ذلك فإنها محللة له غير محرمة عليه ، وكيف أنها تميت وتحيي ، تميت الهم ، وتحيي النفس . ومن الصور التى رسمها واعتمد على محاولات أبى نواس فيها[1] تشبيهه الحباب الأبيض الذى يعلو سطح الخمر الصفراء بالدرر البيضاء التى انقطع سلكها وسقطت على قطعة من الذهب .

ولاتزال تلقانا آثار واضحة من تصنيع مسلم فى مقدماته ، وهى أن تتخذ صورتين : أما الصورة الأولى فتتمثل فى هذه المطابقات الكثيرة بين « الماء » و « العنب » أى الخمر ، وبين « حر الشمس » و « اللهب » أى النار ، وبين « مكسوبة » و « غير مكتسب » ، وبين «احيية » و « مميتة » ، وبين « الهموم » و « البشر » . وتتمثل الصورة الثانية فى حرصه على الأنغام وتوليدها ، فقد اختار بحر البسيط الذى تتألف من تكرار تفعيلاته نغمات حلوة رشيقة ، كما انتخب كلماته من ذوات السين التى يتكون من تكرار نفس الحرف فيها ما يشبه الصفير ، وكأنما أراد أن يجعل المقدمة نغماً خالصاً مطابقاً للجو الذى تأثر به وصوّره .

وبيّن مما قدمنا أن مقدمات مسلم تنقسم إلى قسمين كبيرين ، قسم قديم وتمثله المقدمة الطللية ، والمقدمة الغزلية ، ومقدمة وصف الوداع المتطورة عن وصف الظعن ، ومقدمة وصف الطيف ، ومقدمة الشباب والشيب . وهى فى مجموعها تَظْهَرُ فيها صنعة مسلم واضحة جلية ، إذ أشاع فيها أدوات البديع وبخاصة الطباق الذى فتن به وأقام معظم المعانى عليه . وتُظْهِرُ أيضًا أنه تخفف فيها من العناصر البدوية ، ومن الأجزاء الصحراوية التى كانت تليها من تصوير الصحراء والرحلة والناقة ، وأنه أحل محل هذا الجزء فى الغالب وصف الخمر الذى ينفرد بإكثاره منه وتشبيته له . أما القسم الثانى فجديد تمثله المقدمة الخمرية التى افتتح بها ثلاث مدائح ، ألغى فى اثنتين منها وصف الصحراء ووصف فى ثالثتها رحلته فى البحر على ظهر السفينة .

---

(١) يقول أبو نواس :

كأن صغرى وكبرى من فواقعها حصباء در على أرض من الذهب

(ديوانه ص : ٢٤٣ — شرح محمود أفندى واصف) .